نصائح ذوي التّشوّف إلى طرائق التّصوّف

تأليف العلّامة محمّد الحسن الخديم
حفظه الله

أَقُولُ بَعْدَ الحَمْدِ وَالصَّلاَةِ ... عَلى الْهُدَى وَصَحْبِهِ الْهُدَاةِ
يَا مَنْ تَشَوَّفَ إِلَى التَّصَوُّفِ ... وَهْوَ لِدِينِ الْحَقِّ ذُو تَشَوُّفِ
أَرَاكَ تَذْكُرُ عُهُوداً مَاضِيَهْ ... مِنْ أَهْلِهَا الأَرْبُعُ أَمْسَتْ خَالِيَهْ
إِنْ كُنْتَ حَقاً طَالِباً تَصَوُّفَا ... لِدِينِ حَقٍّ صَادِقاً تَشَوُّفَا
عَرِّجْ وَقِفْ بِالأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ ... مَافِي الْوُقُوفِ سَاعَةً مِنْ بَاسِ
وَسَلْ عَنَ اَهْلِ الرَّبْعِ أَيْنِ ارْتَحَلُوا ... وانْزِلْ مَنَازِلَ بِهَا قَدْ نَزَلُوا
لاَتَرْضَ إِنْ أَعْمَلْتَ كُلَّ يَعْمَلَهْ ... مِنْ صِدْقِ عَزْمِكَ بِأَدْنَى مَنْزِلَهْ
لاَتَسْلُ عَنْ وِصَالِكَ الأَحِبَّهْ ... إِنْ كُنْتَ فِيهِمْ صَادِقَ الْمَحَبَّهْ
وَاصْغَ لِمَنْ حَدِيثُهُمْ أَفَادَا ... «تَوَاتُراً» يَرْوِيهِ أَوْ «آحَادَا»
أَحْسَنْتَ فِي طَلَبِ عِلْمٍ وَجَبَا ... «وَكَسُطُورِ الضَّادِ وَالطَّا ذَهَبَا»
لَكِنْ تَشَوَّفْتَ لأَمْرٍ انْدَرَسْ ... فَالحَقُّ بِالْبَاطِلِ شِيبَ فَالْتَبَسْ
لَمْ يَسْتَبِنْهُ الْيَوْمَ غَيْرُ أَلْمَعِي ... لاَ بِمُغَفَّلٍ وَلاَ مُنْخَدِعِ
إِذْ كُلُّ قَوْمٍ أَحْرَزُوا تَعَصُّبَا ... «قَلْبَ ٱلْحَقَائِقِ لُزُوماً أَوْجَبَا»
تَرَى الْوَلاَيَةَ تَزِيدُ بِحَسَبْ ... قِلَّةِ عِلْمٍ وَتُقَى يَالَلْعَجَبْ !
مُؤَخَّرُ الرُّتْبَةِ قَدْ تَصَدَّرَا ... وَمُسْتَحِقُّ الصَّدْرِ قَدْ تَأَخَّرَا
يَنْحُونَ ذَاكَ النَّحْوَ وَهْوَ عِبْرَهْ ... يَأْبَاهُ أَهْلُ كُوفَةٍ وَالْبَصْرَهْ

فَالْجَاهِلُ الْمُفْرِطُ فِي الْغَوَايَهْ بَيْنَ الْوَرَى مُحَقِّقُ الْوِلاَيَهْ
وَالْعَالِمُ التَّقِيُّ لَمْ يُقَلَّدِ قَضَى بِعَزْلِهِ أَمِيرُ الْبَلَدِ
مَتَّعَكَ اللَّهُ بِعَقْلٍ رَاجِحِ يَدْرِي الْمَفَاسِدَ مِنَ الْمَصَالِحِ
يَقِيكَ أَنْ تَسْلُكَ طُرُقَ الْعَطَبِ وَأَنْ تَشِيمَ كُلَّ بَرْقٍ خُلَّبِ
وَأَنْ تُقَضِّيَ الْعُمْرَ تَعْبُدُ سِوَى مَوْلاَكَ سَعْيُكَ هَبَاءٌ فِي هَوَا
إِنِّي — وَأَسْتَغْفِرُ رَبِّي وَأَتُوبْ إِلَيْهِ مِمَّا قَدْ جَنَيْتُ مِنْ ذُنُوبْ —
إِيَّاكَ أَنْصَحُ وَقَدْ يُرْعَى الْهَشِيمْ وَتُؤْخَذُ الْحِكْمَةُ مِنْ غَيْرِ حَكِيمْ
فَاقْبَلْ نَصِيحَةَ مُجَرِّبٍ طَلَبْ قَبْلَكَ ذَا والدَّهْرَ شَطْرَيْهِ حَلَبْ
وَلْتَتَّهِمْ نَفْسَكَ حَتَّى تَسْمَعَا نُصْحِي وَبَعْدَ ذَاكَ سُدَّ الْمَسْمَعَا
فَالْخَلْقَ دَعْهُمْ مُحْسِناً ظَنّاً وَجِدْ بِالصِّدْقِ طَالِباً تَصَوُّفاً تَجِدْ
مُطَالِعاً أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَا مِنَ الْهُدَاةِ الرَّاسِخِينَ قَدَمَا
مُقْتَبِساً مِنْ نُورِهِمْ مُقْتَدِيَا بِإِثْرِهِمْ بِهَدْيِهِمْ مُهْتَدِيَا
ولاَ تُصِخْ لِعَذْلِ قَوْمٍ أَعْرَضُوا عَنْ صَوْبِهِ إِذْ عَنْ نُفُوسِهِمْ رَضُوا
وَاسْلُكْ طَرِيقَهُ بِالاِسْتِقَامَهْ فَالاِسْتِقَامَةُ هِيَ الْكَرَامَهْ
تَصِلْ مَقَامَاتِ الْمُقَرَّبِينَا أَوْ مِنَ الأَبْرَارِ تُرَى يَقِينَا
وَكُلُّ مَنْ أَشْرَقَتِ الْبِدَايَهْ مِنْهُ فَمِنْهُ أَشْرَقَتْ نِهَايَهْ
وَأَنْتِ يَا أُخَيَّتِي اسْتَقِيمِي فِي الْبَيْتِ قَرِّي وَبِهِ أَقِيمِي
وَعَنْ سِوَى الْمَحْرَمِ وَالْحَلِيلِ فَاحْتَجِبِي خَوْفاً مِنَ الْجَلِيلِ
غَضِّي مِنَ الْبَصَرِ وَالصَّوْتِ وَلاَ تُخَالِفِي أَمْرَ الْمُهَيْمِنِ عَلاَ
وَلاَ تُطِيعِي الأَمْرَ مِنْ مُقَدَّمِ رَخَّصَ فِي مَعْصِيَةِ الْمُنْتَقِمِ
وَلاَتَظُنِّي الطَّيَرَانَ وَالنُّزُولْ وَخَلْعَ جِلْبَابِ الْحَيَا هُوَ الْوُصُولْ
إِنَّ الْحَقِيقَةَ بِلاَ شَرِيعَهْ زَنْدَقَةٌ بَشِيعَةٌ شَنِيعَهْ
خَيْرُ الأُمُورِ سُنَّةٌ تُتَّبَعُ وَشَرُّهُنَّ الْمُحْدَثُ الْمُبْتَدَعُ

هَذَا وَالِاسْتِقَامَةُ احْتَاجَتْ إِلَى عِلْمٍ فَلاَ تَصِحُّ مِمَّنْ جَهِلاَ
إِذِ اجْتِنَابٌ وامْتِثَالٌ قَدْ يُنَالْ بِالعِلْمِ وَالتَّقْوَى اجْتِنَابٌ وَامْتِثَالْ
وَلَمْ يَزِنْ خَوَاطِرَ الْجَنَانِ بِالشَّرْعِ إِلاَّ وَاجِدُ الْمِيزَانِ
فَوَاجِبٌ مِن أَجْلِ ذَا تَحْصِيلُ عِلْمٍ إِذِ الْعِلْمُ هُوَ الدَّلِيلُ
فَفِرَّ مِنْ عَدْوَى مُعَادِي الْعُلَمَا يَزْعُمُ رَفْضَ الْعِلْمَ دِيناً قَيِّمَا
يُقَلِّدُ الْوسَاوِسَ الَّتِي تُلِمْ بِنَفْسِهِ يَحْسِبُهَا شَرْعاً عُصِمْ
قَدْ قَالَ ذُو ٱلْمَبَاحِثِ ٱلأَصْلِيَّهْ فِي رَسْمِهِ طَرِيقَةَ الصُّوفِيَّهْ
«إِذِ الطَّرِيقُ الْعِلْمُ ثُمَّ الْعَمَلُ ثُمَّ هِبَاتٌ بَعْدَ ذَا تُؤَمَّلُ»
وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ مُدِيمَ ذِكْرِهِ وَاذْكُرْهُ عِنْدَ نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ
وَلْيَكُ ذِكْرُكَ الإِلَهَ مَرْعِي فِيهِ السُّلُوكُ لِطَرِيقِ الشَّرْعِ
إِيَّاكَ عَمْدَ لَحْنِهِ الْمُحَرَّمِ شَرْعاً وَذِكْراً مَعَ غَيْرِ الْمَحْرَمِ
إِذْ لَيْسَ فِي الْمَنْهِيِّ عَنْهُ قُرْبَهْ يُرْضِي بِهَا الْعَبْدُ الْمُنِيبُ رَبَّهْ
وَمَا مِنَ الْعِرْفَانِ ذَنْبٌ يُرْتَكَبْ وَلاَ التَّجَاهُرُ بِمَا لَيْسَ أَدَبْ
وَلاَ نَشِيدُ الشِّعْرِ بِالأَلْحَانِ بَيْنَ الأَجَانِبِ مِنَ الْعِرْفَانِ
فَاعْنَ بِمَا فِيهِ رِضَى الْعَلِيِّ وَاصْغَ لِبَيْتَيْ أَحْمَدَ الْحَاجِيِّ
«وَجَرِّدِ السَّعْيَ لِإِرْضَاءِ الإِلَهْ لاَلِابْتِغَا عِزٍّ وَلاَ مَالٍ وَجَاهْ
وَلاَ لِكَشْفِ غَيْبٍ اوْ لِخَرْقِ مَا اعْتِيدَ أَوْ بُلُوغِ أَمْرٍ مُرْقِي»
وَمَنْ يَسِرْ بِقَدَمِ التَّفَسُّقِ فَأَمْرُهُ يَؤُولُ لِلتَّزَنْدُقِ
كَمْ ظُنَّ فَجْرٌ فَاسْتَمَرَّ غَيْهَبُ فَالْفَجْرُ يَصْدُقُ وَطَوْراً يَكْذِبُ
قَبْلَ الْعِلاَجِ اعْرِفْ طَبَائِعَ الزَّمَنْ وَأَهْلِهِ ولاَ تُثِرْ خِلْطَ الْفِتَنْ
فَإِنْ يَهِجْ خِلْطُ تَعَصُّبٍ رَدِي فَحَرَّهُ بِالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ ابْرُدِ
ذا زَمَنٌ سُمُّ فَسَادِهِ سَرَى فَلَيْسَ يُبْقِي وَ«الْبُغَاثُ اسْتَنْسَرَا»
وَسَيْرُ أَهْلِ الْعَصْرِ ذُو اتِّجَاهِ إِلى الدُّنَا وَشُهْرَةٍ وَجَاهِ

وَقَلَّ مَنْ بِدِينِ حَقٍّ يَعْتَنِي ... إِذْ مَلأَ الأُفْقَ دُخَانُ الْفِتَنِ
وَكُلُّ قَاصِرٍ تَرَاهُ مُجْتَهِدْ ... وَالْجُهَلاَ مَابَيْنَ قُطْبٍ وَوَتِدْ
سَادُوا فَقَادُوا فَرَبَا الْفَسَادُ ... فِي الدِّينِ حِينَ الْجُهَلاَءُ سَادُوا
وَقُدِّمُوا وَالْعُلَمَا بِمَعْزِلِ ... تَقْدِيمَ سُلْطَانٍ وَرَبٍّ مَنْزِلِ
هَذَا وَلَمَّا الْحَالُ هَكَذَا جَرَى ... أَرَى لَكَ الَّذِي لِنَفْسِيَ أَرَى
الإِيمَانَ صَحِّحْهُ مَعَ اسْتِقَامَهْ ... وَارْضَ مِنَ الأَرْبَاحِ بِالسَّلاَمَهْ
وَازْهَدْ لِرَغْبَةٍ فِي الأُخْرَى وَاعْتَزِلْ ... كُلَّ الْوَرَى وَبِالَّذِي يَعْنِي اشْتَغِلْ
قَالَ الْجُنَيْدُ ذَرَّةُ اسْتِقَامَةِ ... خَيْرٌ مِنَ الأَلْفِ مِنَ الْكَرَامِةِ
وَلْتَتَبَصَّرْ خَوْفَ أَنْ تُقَلِّدَا ... مَنْ لَيْسَ يُقْتَدَى بِهِ وَيُهْتَدَى
لاَ تُسْلِمِ النَّفْسَ لِغَيْرِ ذِي وَرَعْ ... مِنْ بَيْنِ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ جَمَعْ
رَغِبَ فِي الأُخْرَى وَفِي الدُّنْيَا زَهِدْ ... بِعِلْمِهِ وَبِاتِّبَاعِهِ شُهِدْ
وَلاَ تَظُنَّ كَثْرَةَ الأَتْبَاعِ ... دَلَّتْ عَلَى الْعِلْمِ وَالاِتِّبَاعِ
كَثْرَةُ الاَصْدِقَا لِتَخْلِيطٍ دَلِيلْ ... وَقَائِلُ الْحَقِّ صَدِيقُهُ قَلِيلْ
إِنْ كُنْتَ أَعْمَى تَقْتَدِي بِأَعْمَى ... مُصَدِّقاً بِلاَ دَلِيلٍ زَعْمَا
أَصْبَحْتَ تَنْقَادُ لِكُلِّ نَاعِقِ ... لَمْ تَدْرِ بَيْنَ كَاذِبٍ وَصَادِقِ
وَبَيْنَ الاِهْتِدَاءِ وَالضَّلاَلِ ... وَبَيْنَمَا الْمَهْدِيِّ وَالدَّجَّالِ
فَيَسْتَوِي النُّورُ لَدَيْكَ وَالظُّلَمْ ... وَلَمْ تُمَيِّزْ بَيْنَ شَحْمٍ وَوَرَمْ
وَالْجَهْلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْفَاسِدِ ... هُوَ الْمُؤَدِّي كَثْرَةَ الْمَفَاسِدِ
حَتَّى غَدَتْ مَرْتَبَةَ الْوَلاَيَهْ ... وَقْفاً يَحُوزُهُ ذَوُو الْعَمَايَهْ
فَابْدَأْ بِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ الظَّاهِرَهْ ... مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ قُطْبَ الدَّائِرَهْ
لَكَ يُخَيَّلُ مَقَامٌ قَدْ سَمَا ... إِلَى السَّمَاءِ بَلْ سَمَا فَوْقَ السَّمَا
إِذَا سَمِعْتَ الْحَقَّ مِنْ ذِي صِدْقِ ... يَأْبَى لَكَ الْكِبْرُ قَبُولَ الْحَقِّ
إِذْ أَنْتَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ ... تَرَاكَ لاَ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ

تَسْتَعْبِدُ النَّاسَ بِدُونِ مَنْفَعَهْ ... لَهُمْ لِتَحْظَى خَفْضَ عَيْشٍ فِي دَعَهْ
تُفْسِدُ نَفْسَكَ وَمَنْ لَكَ انْتَسَبْ ... وَكُلُّ ذا مِن شُؤْمِ جَهْلٍ مُكْتَسَبْ
فَالرَّأْيُ فِي تَحْصِيلِكَ الْعِلْمَ انْحَصَرْ ... كَيْفَ الهُدَى وَأَنْتَ مَكْفُوفُ الْبَصَرْ ؟
قَدْ قَالَ مَالِكٌ وَنَاهِيكَ ثِقَهْ ... تَصَوُّفٌ مِنْ دُونِ فِقْهٍ زَنْدَقَهْ
وَلِابْنِ مُتَّالِي الْوَلِيِّ أَنْشَدُوا ... «الدِّينُ دُونَ الْعِلْمِ لَيْسَ يُوجَدُ»
وَقَالَ أَيْضاً نَجْلُ أَحْمَدْ فَالِ ... وَهْوَ لَعَمْرِي صَادِقُ الْمَقَالِ
«فَطَاعَةُ الْعَارِفِ الِامْتِثَالُ ... وَشَهْوَةٌ مَا يَفْعَلُ الْجُهَّالُ»
وَقَالَ نَجْلُ أُبِّ مَنْ قَدْ فاقَا ... وَصِيتُهُ قَدْ مَلأَ الآفَاقَا
«تَرْكُ التَّعَلُّمِ لِكُفْرٍ يُفْضِي ... أَوْ هُوَ كُفْرٌ عِنْدَهُمْ بِالْمَحْضِ»
«لأَنَّهُ الإِعْرَاضُ عَنْ وَحْيِ النَّبِي ... وصَاحِبُ الإِعْرَاضِ بِالْكُفْرِ حُبِي»
وَذَاكَ لَمْ يَحْتَجْ دَلِيلاً فِيهِ قِيلْ ... إِلاَّ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ لِدَلِيلْ
وَبَعْدَ أَنْ حَصَّلْتَ فَرْضَ الْعَيْنِ ... وَرُمْتَ عَنْ حِجَاكَ كَشْفَ الرَّيْنِ
فَلْتَسْتَعِنْ بِمُرْشِدٍ يَكُونُ مَعْ ... عِلْمِ الْحَقِيقَةِ الشَّرِيعَةَ جَمَعْ
وَقَلَّ أَنْ يُلْفَى بِذَا الزَّمَانِ ... «فَذِكْرُ ذَا وَحَذْفُهُ سيَّانِ»
«وَقَدْ يَصِيرُ عَلَماً بِالْغَلَبَهْ» ... وَالْجَاهِ مَنْ لاَيَسْتَحِقُّ الْمَرْتَبَهْ
نَعَمْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تُصَادِفَهْ ... إِذْ فِي الْحَدِيثِ «لاَتَزَالُ طَائِفَهْ»
وَذُو الْبَصِيرَةِ لَهُ تَأَنِّي ... لاَ يَتْبَعُ الْوَهْمَ وَلا التَّظَنِّي
وَلَيْسَ يُخْدَعُ لَدَى التَّنْوِيهِ ... بِالْغِشِّ وَالْكَذِبِ وَالتَّمْوِيهِ
هَذَا وَلَيْسَ مِنْ مَعَايِبِ الْوَرَى ... كَنَقْصِ مَنْ عَلَى التَّمَامِ قَدَرَا
فِقْهٌ بِلاَ تَصَوُّفٍ تَفَسُّقُ ... وَالْجَمْعُ مِنْ بَيْنِهِمَا تَحَقُّقُ
فَثَمْرَةُ الْعِلْمِ هِيَ الْعِبَادَهْ ... وَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا عِبَادَهْ
فَاعْبُدْهُ قُدِّرَ لَكَ اللِّقَاءُ ... لِلشَّيْخِ أَوْ طَارَتْ بِهِ الْعَنْقَاءُ
وَاللَّهُ يَهْدِينَا إِلَى الصَّوَابِ ... وَالْقَفْوِ لِلسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ

مَـــعَ الْمُتَابَعَـــةِ لِلشُّيُـــوخِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ ذَوِي لرُّسُوخِ
فَـلاَ نُقَلِّـدُ ذَوِي الأَحْـــوَالِ فِي مُشكِلِ الأَفْعَالِ وَالأَقْـوَالِ
لَكِنْ نُسَلِّمُ لَهُمْ حُسْنَ اعْتِقَادْ بِلاَ اسْتِنَادٍ لَهُـمُ وَلاَ انْتِقَـادْ
وَلاَ نُقَلِّـدُ الَّذِيـــنَ أَنْكَـــرُوا عَلَى الأُلَى ذِكْراً كَثِيراً ذكَرُوا
بَلْ نَقْتَدِي فِي دِينِنَا بِمَنْ جَمَعْ عِلْمَ الظَّوَاهِرِ وتَقْـوَى وَوَرَعْ
تَمَّتْ نَصَائِحُ ذَوِي الـتَّشَوُّفِ حَقاً إِلَى طَرَائِق الـتَّصَوُّفِ
بَنَـاتُ فِكْـرٍ رَدَّتِ الْخُطَّابَـا عَنْهَا سِوَى مَنْ يَفْهَمُ الْخِطابَا
تَمِيسُ فِي الْمُرُوطِ وَالرِّيَـاطِ مِنْ وَرَعٍ تُـنْسَجُ وَاحْتِيَـاطِ
وَقَدْ تَحَلَّتْ بِحُلَى نُصْحٍ وَجَبْ لَوْ فُقِدَ ٱلتَّأْثِيرُ فِيهِ وَٱلطَّلَبْ
كُلُّ امْرِىءٍ لَهُ يَكُونُ مَا نَوَى وَٱلْحَقُّ رُبَّمَا يُخَالِفُ الْهَوَى
كَمْ أَفْهَمَتْ فَلَمْ يُعَبْ إِفْهَامُ وَأَبهَمَتْ فَاسْتُحْسِنَ الإِبْهَـامُ
الإِبْهَامُ حُسْناً عُدَّ بِٱلْخَنَاصِرِ إِنْ خِيفَ مِنْ سَبَّابَةِ ٱلْمُعَاصِرِ
وَقَدْ يَفُوتُ الرَّمْزُ وَٱلتَّعْرِيضُ فَهْمَ فَتًى وِسَادُهُ عَـرِيضُ
يَا لَيْتَهَا مِنْ عَيْنِ قَلْبٍ صَافِ تُنْظَرُ بِـٱلصَّوَابِ وَٱلإِنْصَافِ
وَارْتَادَ وَسْمِيَّ حَيَاهَا الْهَاطِلِ مَنْ لَيْسَ ذَا تَعَصُّبٍ لِلْبَاطِلِ
وَرَبُّنَا يُعْطِي وَهُوَّ الْمَانِـعُ عَنِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا يُدَافِـعُ
ثُمَّ ٱلصَّلاَةُ وَٱلسَّلاَمُ فِي ٱلْخِتَامْ عَلَى النَّبِي وَآلِهِ ذَوِي التَّمَامْ